معالم الصحوة الإسلامية عند الإمام الخميني قدس سره

بقلم : الدكتور فؤاد كاظم المقدادي

أمام هده التحديات الكبرى جاءت الصحوة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني الكبير قدس سره ، لتضع لنا في هذه المرحلة الحساسة من مسيرتنا الرائدة معالم الحركة الرسالية لاحتواء هذه التحديات ، وطرح الإسلام العظيم بكل قوة و اقتدار على أساس فكري مبين ، وعزم وإرادة راسخة ؛ ليكون له في كل مسألة جواب تام ، ولكل شبهة ردّ حاسم ، وأمام كل ظلم وباطل موقف عدل وحق ، ويحق قول الله تعالى في محكم قرآنه الكريم في قيمومة الإسلام : **(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** (سورة الروم :٣٠) وفي هيمنته على الدين كله : **(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)** (المائدة : ٤٨) وأبرز هذه المعالم التي رسمتها لنا الصحوة الإسلامية وقيادتها الرشيدة هي :

أولاً- تجسيد الرؤية العقائدية بدور الغيب المطلق ، والقدرة الإلهية في رسم سنن التغيير الاجتماعي و مسار حركة الأُمم و الشعوب:

إن العقيدة بالغيب و قدرة الله المطلقة في سير الحياة الإنسانية ، لا سيما في الجانب الاجتماعي ، هي جوهر الإسلام و الإيمان ، وهي المبدأ المطلق في استمداد النصر و إقامة حكومة العدل الإلهي في الأرض .

إن الكشف عن هذا المبدأ على المستوى العالمي للأُمم و الشعوب ، والإيمان به ، و السير على نهجه ، تحقق من خلال عاملين أساسيين متعانقين : أحدهما سلبي و الآخر إيجابي ، أما السلبي فهو مجموعة التحولات التي تفرزهـــا عملية الصـــراع بين الحـــق و الباطل و العدل و الظلـم في الواقع البـشري ، والتي من خلالهـــا تنتبه البشرية إلى بطلان العقائد الجاهلية السائدة ، وخَطل النظريات الحاكمة ، وفساد القوى والممارسات التي تنبثق عنها، والآخر إيجابي يتمثل بتطلع هذه الشعوب والأُمم نحو الأُطروحة البديلة في بعديها العقائدي و التشريعي ، والتي تأمل فيها إقامة الحق و إزهاق الباطل و تحقيق العدل و دفع الظلم .

إن عملية الكشف عن المبدأ و التحول العالمي نحوه هما أول إشعاع انبثق من أُفق الثورة الإسلامية وقيادتها الربانية ، فأيقظ الأُمم و الشعوب من سباتها ، وحول ظلمتها إلى صبح مُنير ، أشرقت معه النفوس ، وتطلعت بانبهار إلى حقائق كبرى لم تكن قد أدركتها من قبل ، أو خُيّل إليها أنها نوع من خرافات المتخلفين وبقايا جهل الإنسان القديم ، وهذه هي أهم مفردات نهج الصحوة الإسلامية و قيادتها الرسالية في مواجهة التحديات المعاصرة ، و إحداث التغيير الأساسي في طريقة التفكير المادية ، و المنهجية العلمانية في تناول الحقائق و القضايا .

فعن سرّ انتصار الثورة الإسلامية يقول الإمام الخُميني قدس سره : ((لنعلم أن ألطاف الإمداد الغيبي الإلهي هي التي أوصلت هذه الثورة للنصر)) [١] . ولم تكن هذه المقولة المبدئية مجرد عقيدة ، تحمّل على الأحداث و الوقائع لتَسمها بطابعها الخاص ، بل إنها حقيقة ، ثبت وجودها المطلق من خلال إستقراء الواقع موضوعياً للوقوف على فواعل حركته و قوانين صيرورته ، فعندما يقرر الإمام قدس سره أن الثورة الإسلامية تمتاز عن كل الثورات : ((بالانطلاقة وفي أساليب المقارعة وفي أهداف انتفاضتها)) [٢] ، يصيب تلك الحقيقة إصابة موضوعية ، وذلك عندما ننظر إلى طبيعة الثورة في انطلاقتها ، وفي سياق حركتها و أهدافها و المخاطر المحدقة بها ، والقوى التي تناهضها ، مع إمكاناتها المتواضعة إذا ما قيست مع إمكانات أعدائها ، يثبت أن النصر الذي حققته و المبارزة التي أشعلت فتيلها و أدامتها بوجه القوى الكبرى ، لم يكونا من إبداعاتها المحضة و إمكاناتها المادية المتواضعة فحسب ، وإلاّ فالمعادلة وفقاً للموازين المادية لكلا الطرفين قد تكون راجحة لصالح قوى الأعداء الكبرى ، لذا يؤكد الإمام قدس سره : ((لولا يد القدرة الإلهية لم يكن ممكناً أن ينجز شيئاً شعب الستة و الثلاثين مليوناً في ظل الدعاية المعادية للإسلام ... وما كان هذا الشعب لولا قدرة اليد الإلهية ليحقق شيئاً في ظل إقامة كل تلك المراكز المخصصة للفساد و البغاء و القمار و الخمر و المخدرات)) [٣] .

كما أن يد القدرة الإلهية وألطاف الإمداد الغيبي هما اللتان كانتا وراء وحدة الشعب و انتفاضاته ، ولولاهما لكان محالاً أن يتوحد الشعب كافة لهدف واحد ، وهذا ما يثبته الإمام الخُميني قدس سره فيما جاء في وصيته : ((في ظل كل ذلك كان محالاً أن ينتفض هذا الشعب كافة في أرجاء البلد ، ولهدف موحد ليدحر كل القوى المضادة محلية و أجنبية ، وينتزع منها مقدرات بلده)) [٤] .

إن العقيدة بالغيب ودورها المطلق في استقامة و انتصار حركة الأُمة المتجهة صوب تحقيق الأهداف الإلهية ، هي عقيدة إسلامية خالصة ؛ ذلك لأن عوامل النصر في الإسلام تنطلق أولاً من ذات الإنسان و محتواه الداخلي لتنتهي إلى الله تبارك و تعالى ، والله تعالى هو الذي يحقق النصر إذا ما حقق الإنسان العبودية له لقوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**) (محمد : ٧) ، بل في تحقيق وحدتها الحقيقية الشاملة لقوله تعالى:(**وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم**) (الانفال : ٦٢-٦٣)

فمن ضروريات ومعالم الإنتصار والتكامل في حركة الأُمة و الإنسان المسلم وهو التأكيد على هذه الحقيقة ، وتربية و إعداد النفوس للإذعان والإقرار بها ، وتمكينها من الاستعداد الفعلي ، واستيعابها شعورياً و سلوكياً ، والتعامل الدائم على أساسها وحساب النتائج ، على ان الله تبارك وتعالى هو المهيمن على كل ذلك وبيده عاقبه الأُمور . إنّ تخطّي هذه الحقيقة أو تجاهلها لا يثمر إلاّ الفشل و الخسران والتخبط في هوس الاضطراب وخطل الممارسة , هذه هي الحقيقة الأساسية الأُولى التي اتسمت بها الثورة الإسلامية ، و رسمت معالم نهجها التغييري في العالم قيادتها الإسلامية الرشيدة ؛ لإعادة البشرية إلى عمقها الفطري و وجدانها الأولي ، و الانعتاق من أسر المادية المقيت إلى رحاب الله تعالى ، حيث الحرية الحقيقة في الفكر و العدالة في الحكم و الاستقامة في العمل و السلوك .

ثانياً – الأُمة المؤمنة بالله قوة حقيقية في صنع التغيير :

إن ثاني التحديات المعاصرة الذي وقفت الثورة الإسلامية بكل عظمة وإقتدار لمواجهتها ، هو العقل الجمعي الذي تخلقه وسائل الإعلام المضللة ، و تُحكم القوى الكبرى و الحكومات الفاسدة سيطرتها على الأُمم و الشعوب من خلاله .

إن أبرز ما تـ فرزه هيمنة العقل الجمعي المختلق المبطّن بالإعلام المضلل ، هو سلب الأنسان و المجتمع أدراكه السليم ، و إرادته الحرة في الاختيار ، و إملاء أفكار ومناهج وهمية عليه ، ووضعه في إطار خيارات قسرية محددة لا يملك بديلاً خارج حدودها . وهذا بخلاف الدعوة الإسلامية ، فإن من أبرز أهدافها هو توجيه العقل الإنساني نحو الحقائق الواقعية ، لتكوين الفكرة السليمة و العقيدة الصحيحة ، وتربية إرادته على الاختيار الحر النزيه القائم على الوعي و الإدراك المتكامل ، وهو المعْلَم الثاني الذي رسمته لنا الثورة الإسلامية وقيادتها الرسالية في نهجها التغييري ، فهي أولاً تعلن أن الأُمة هي القوة الحقيقية التي لا يمكن إغفالها و تجاوزها أو التنكر لقضاياها و مصالحها العامة ، وهي ثانياً تعمل لتطبيق هذا الشعار من خلال تعبئة الأُمة المؤمنة بالله وتوجيهها قوةً حقيقية ، تتكامل مع حقيقة الواقع الإلهي و الإمداد الغيبي ، لأجل صنع النصر و تحقيق التغيير و إقامة حكومتها العادلة وديمومتها ، وهما عاملان لا ينفك أحدهما عن الآخر في تحقيق الهدف المنشود ، ويكشف الإمام الخميني قدس سره عن هذه الحقيقة في قوله : ((يقين أن سر ديمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر انتصارها ، والأُمة تعلم ماهية هذا السر وأين يكمن ؟ والأجيال الآتية ستقرأ في التاريخ أن دعامتي هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي ، والغاية السامية للحكومة الإسلامية ، والتفاف الشعب في أرجاء البلد بكلمة واحدة حول هذا الدافع وتلك الغاية))[٥] .

وعليه فإذا كانت الثورة الإلهية و التغيير الإسلامي هما من صنع الأُمة المؤمنة بالله والإمداد الإلهي لها، وأن بقاءها و ديمومتها متوقفان على ذلك ، فإن دور الحكومة بكافة مؤسساتها دور خدمي ، وطبيعته حماية مصالح الأُمة و أهدافها ، وتحقيق غاياتها و رغباتها ، بعيداً عن التحميل و التسلط الاستكباري وخلق أجواء الهيمنة الشكلية ، وعلى هذا الأساس يصف الإمام قدس سره وظيفة الحكومة – وزراء و مسؤولين – بأنهم مجرد ((خدمة للشعب و المستضعفين خاصة))[٦] ، ولا مجال بعدئذ للاستعلاء على الأُمة أو سحقها أو هضم حقوقها ، سواء كان ذلك عن طريق الإرهاب و القوة ، أو عن طريق أسرها في قيود العقل الجمعي الباطل الذي يخلقه الإعلام المضلل ، كما هو حادث اليوم في سائر الأنظمة الأُخرى في العالم . وفي نهج الثورة الإسلامية تأخذ الأُمة دورها الشامل و مسؤوليتها الكاملة ، فتؤثر مباشرة في صميم الأحداث دون عازل ، فالمؤامرات المضادة للثورة يضطلع الشعب بكشفها و إسقاطها . يقول الإمام قدس سره: ((يلزم على شعب إيران اليقظ الواعي أن ينطلق من رؤية إسلامية لإحباط تلك المؤامرات))[٧] بل يجعل من الشعب رقيباً وناظراً على المسيرة السياسية . فيقول: ((وأوصي الشعب العزيز انطلاقاً من الحرص عليه و الرغبة في الخدمة ، أن عليكم باليقظة و الحذر و مراقبة محترفي السياسة المرتبطين بالشرق أو بالغرب ؛ كي لا يسوقوكم بوساوسهم الشيطانية إلى تبيعة هؤلاء السراق الدوليين))[٨] ، وكذا في حماية وحفظ الثقافة الإسلامية الأصيلة من التحريف ، حيث يقول قدس سره : ((إذا ما وجد بين الأساتذة من يسعى إلى الانحراف فلينصحوه ، وإن لم يرعوي فلينبذوه و ليطردوه من قاعات التدريس))[٩] وهكذا فالسلطة تُقوّم بالأُمة المؤمنة بالله في نهج الثورة الإسلامية . وتؤكد الثورة على لسان قائدها هذا النهج قائلاً : ((وليعلموا أنه لن تحدث ثغرة في قلعة الشعب الفولاذية بسبب ذهاب خادم (حاكم) ، فهناك خدمة أسمى و أرفع مشغولون بالخدمة ، والله حافظ هذا الشعب و مظلومي العالم))[١٠] .

ثالثاً- رفض الهيمنة الاستكبارية ومبدأ اكتشاف الذات :

وهو السمة الأساسية الثالثة لنهج الثورة الإسلامية ، وقيادتها الرشيدة في مواجهة التحدي المعاصر ؛ فلو استقرأنا الثورات المعاصرة في عالمنا ؛ لما وجدنا ثورة شعبية الهية خالصة ، غير منحازة بشكل أو آخر لأحد قطبي العالم الشرق أو الغرب ، فضلاً عن أن تكون متمردة عليهما أو مناهضة لهما حقاً .

وقد تبدأ الثورات و القيادات ثورية مستقلة ، ثم لا تلبث أن تقع في أحضان إحدى القوى الكبرى مختارة لرفع العزلة التي تُفرض عليها ، أو مكرهة بتهديد الزوال المحدق بها من قبل قوى الاستكبار في العالم . ويعدّ أمراً جديداً وفريداً أن تنبثق ثورة في هذا العصر ، تقوم بالأساس على رفض الهيمنة الاستكبارية ، ومناهضة القوى الكبرى و معاداتها ، وتطرح مبادئ تدعو الشعوب للتخلص من سلطة وهيمنة الأجانب ، ولاسيما القوى الكبرى وتدفعها للثقة بالنفس ، واكتشاف الذات ، والعودة إلى الأصالة ، وعمل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتي ، وهذا ما يكشفه الإمام قدس سره في بيانه لنهج الثورة الإسلامية عندما يقول : ((واعلموا أن العنصر الآري و العربي ليس بأقل من عنصر شعوب أُوربا و أميركا وروسيا ، وإذا إكتشف هويته ونفض اليأس عن نفسه ولم يعقد الأمل على الآخرين ، فإنه قادر على المدى البعيد أن يعمل كل شيء ويصنع كل شيء)) [١١] ، ويشخّص الإمام قدس سره أن من آثار المخطط الاستعماري للقوى الكبرى هو زعزعة ثقة الشعوب المستضعفة بنفسها وبقدراتها ، بل في ثقافتها وأخلاقها ، فيقول : ((إن مخطط نزع البلدان المستعمَرة عن هويتها ، و تغريبها وتشريقها ، هو من المخططات التي كان لها مع الأسف الشديد تأثير بالغ على البلدان ، وعلى بلدنا العزيز ، وقد بقيت نسبة كبيرة من آثارها حتى عادت هذه البلدان لاترى نفسها ولا ثقافتها وقوتها شيئاً ، وترى في القطبين القوتين الغرب و الشرق العنصر الأفضل)) [١٢] ، وانتهى الأمر لدا شعوبنا المستضعفة أن ((أصبح التغريب الكامل في العلاقات الاجتماعية والمعاشرة وجميع شؤون الحياة ، سبباً للتفاخر و التعالي ، ودليلاً على التمدن والتقدم ، والالتزام بثقافتنا وتقاليدنا هو تحجر وتخلّف))[١٣] ، فضلاً عن التبعية الكاملة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً لهذه القوى المستكبرة . وتبقى المسألة الأهم هي خلاص الأُمة من هيمنة قوى الطاغوت الكبرى ، التي وقعت تحت تأثيراتها وفي شباكها ، سواء كانت ذات قطبين كما في المرحلة الأُولى ، أو قطب واحد ، كالذي يُسعى إلى تكوّنه في المرحلة الثانية ، إن الطريق إلى هذا الخلاص في نهج الثورة الإسلامية في النفوس التي إذا ما تمسكت بمبادئها بإصرار و إخلاص وثقة ؛ فإن الانعتاق من تلك الهيمنة المقيتة واقع لا محال ، ويعلن عن هذا النهج قائد الثورة قدس سره في وصيته قائلاً : ((أوصي الشعوب الشريفة المظلومة والشعب الإيراني العزيز ، أن يستقيموا باستحكام وصمود والتزام ومقاومة على هذا الطريق الإلهي المستقيم ، الذي منّ الله به على البشرية والمتحرر من الارتباط بالشرق الملحد والغرب الظالم الكافر))[١٤] . ويُقدم الإمام قدس سره نموذجاً حياً لذلك ، وهو تجربة الثورة الإسلام ية في معاداتها ومناهضتها للقوى الكبرى ، وما نتج عن ذلك من فوائد ومعطيات كانت مَعْلماً و رائداً للشعوب المظلومة في سبيل أن تحثّ الخطى في قطع دابر التبعيات وبناء الذات ، فيقول:((ترون كيف يواصل الانقطاع عن الشرق و الغرب منح ثماره المباركة؛ إذ تفتحت العقول و الطاقات المفكرة المحلية وهي تسير حثيثاً باتجاه الاكتفاء الذاتي)) [١٥] .

ويتوّج الإمام نهجه الإسلامي في رفض و معاداة قوى الهيمنة الكبرى بصلابة مدهشة ، ليس معها أدنى رجعة أو ميل لها فيقول : ((أيها الأُخوة المؤمنون ، إن استئصالنا من قبل الأيدي المجرمة ويتوّج الإمام نهجه الإسلامي في رفض ومعاداة قوى الهيمنة الكبرى بصلابة مدهشة ، ليس معها أدنى رجعة أو ميل لها فيقول قدس سره: ((أيا الأُخوة المؤمنون ، إن استئصالنا من قبل الأيدي المجرمة الأميركية و الروسية ، ولقاءنا الله مخضبين بدم الكرامة ، هما خير من أن نعيش مترفين في ظل الجيش الشرقي الأحمر أو الغربي الأسود)) [١٦] . وهكذا جسدت الثورة الإسلامية العملاقة وقيادتها الربانية من خلال نهجنا الإلهي؛ قدرة رسالتنا الإسلامية على مواجهة التحديات الأرضية مهما كانت ومن أيٍّ كانت ، وصدق فيها قوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)** (الصف : ٩) .

(١-١٦) من وصية الإمام الخميني قدس سره